# أربع ديدان مهزومة

قصة بقلم عبد الرزاق المطلبي

« الى وجه الانسان الضائع في الدم ... الـــى روح الانسان المختنق بين جدران مدن اميركا الكبيرة ... حيث أنفاس العوز جريمة تشرد كبرى ... !! » .

وكعادته جلس في كرسيه ازاء باب المقهى ، ولكنه لم يذرع الشارع بعينيه .. بل نسي حتى عادته في مد نظراته الى رفيقيه في ذلك الركن .. ومن حوله خيوط زرقاء باهتة تتلوى لتصنع له ناقوسا يحشر نفسه فيه من دخان سيجارته المنفعلة .

انسابت يده مندسة تحت سترته لتخرج عددا من اوراق حائلة اللون وقلما .. بسط احدها على الطاولة امامه وسيجارته تشرف على الانتهاء من صنع الناقوس ممدة على منفضه معدنية لامعة .. رفـع رأسه ونقل عينيه في كل مكان وروحه تنفتح على رأسه ملاحقة بعض الصور والكلمات .. قبل شهر كتب الى امه العجوز في عمان .. وقبل اسبوعين كتب الى اخيه في بيروت وعمه في دمشق ، وخاله في العراق .. خاله لا يكبره الا بعامين فقط ، وامه تنتظر بين يوم واخر انفلاق اخر حلقه في عمرها .. ومع هذا فان شيئا يفرز الابر في قلبه .. يشعر به يؤنبه .. كان ولا يدري كيف .. نسي اخته ما يقارب الثلاثة اشهر ولم يكتب لها .. قالت له في اخر رسالة مختومة باسم (غزة) : « اليس من القسوة أن تجلس وحدك تفكر ولا تدري ماذا حل بأهلك .. ؟! أنا يا أخي أفكر بهذا .. أفكر به دونما وعي .. ماذا تقول أنت ؟؟ » تحركت يده بالقلم وحطت على أول سطر في أعلى الصفحة .. كتب « أختي نوال الحبيبة .. تحية شوق واحترام .. ها هو قلبي كعادته يشتد خفوقه فلا أسمع الكلمات التي تدور في ذهني .. ليتك تسمعينه لتعرفي مبلغ لهفي على لقياك ولقيا الجميع .. خاصة أمي .. » بقيت يده نائمة على الورقة وسن قلمه تتحفز .. تذكر رسالة كل أسبوع .. هكذا .. حينما بدأها أول مرة أرادها تسلية يلعب بها في هذه المدينة الغريبة .. ثم ضحك من نفسه وهو يحار في ما يكتبه على غلافها من عنوان ، وما لبث أن طفح شيء في صدره ليسكت ضحكته ، وتحركت يده تخط العنوان .. « نيويورك . الامم المتحدة .. » تردد قبل ان يكتب .. لكنه كتبه .. العنوان .. رغم وجوده هو في نيويورك .. وفي هذا الركن من هذا المقهى الذي احتل من زمن لا يعلم بدايته هذه الزاوية من هذا الشارع الخلفي .. ومع هذ فشيء أشبه بالنشوة داعب مشاعره .. ومع سخريته من نفسه .. ومع شعوره الـــذي يشبه شعور رجل ولد له ولد كسيح بعد طول تلهف .. ومع وجوده على بعد عدد من الشوارع عن بناية الزجاج العالية الكبيرة .. ذات الاروقة المتشعبة التي سمع بها دون ان يراها .. والتي علقت علـــى جبهتها لافتة كبيرة كتب عليها بعدة لغات وبخط كبير « الامم المتحدة .. » فانه مضى يكتب الرسالة كل اسبوع ...

كانت سيجارته قد ماتت وتناثرت جدران الناقوس .. أولع أخرى ليصنع الجدار الضبابي من جديد .. فهو لا يستطيع الكتابة دون أن يخفي نفسه داخل ناقوسه الخاص ، ولا يدري كيف خطـر لـه ذلـك الخاطر .. حينما عدل وقبل اسبوع فقط عن الكتابة الى الامم المتحدة وبدأ يرسم خارطة بلده فلسطين .. يرسم الخارطة ويكتب عبـــارة « فلسطين وطني الضائع .. » ثم يودعه في صندوق البريد .. هل نساءل عن مصير رسالته مرة ؟! لا يدري .. فالسؤال عن كل شـيء معلق أمامه دائما ..

كان الليل يتكثف في ذلك الشارع .. والاضواء الكهربائيـــة البارقة تمزق الظلام .. ولكنه يستشعره .. يحس به نسيجا قاتما .. فضفاضا .. يحوي كل شيء .. نعم يحوي كل شيء .. حتى الافكار الكامنة في الرؤوس الثقيلة تعوم على سطحه الكثيف رغم الاضـواء المزيفة التي تكاد تحيله بنورها الساطع نهارا .. رمى نظراته الـــى الوجهين الصديقين أمامه وحتى ظهره يواصل كتابة رسالته الى أخته .. فكر فيما سيكتبه .. ان لهفة عارمة تحرك قلبه .. تشد مشاعره .. ومع هذا فهو مسوق لان يكتب نفس الكلمات التي طالما كتبها قبلا .. وأحس بقلبه ينعصر في صدره .. الكلمات باردة .. وهو يريد أن يقول أشياء غير ما قاله قبلا .. ماذا ؟! ويثور على نفسه رغم انطباق شفتيه .. أحقا لم يجد جديد في حياتي .. ؟؟ وتشرد عيناه عن الورقة المبسوطة أمامه ملتمسا بعض أفكاره على أرض الشارع اللامعة .. قال الرجـل ذو العين الواحدة والرجل المبتورة : « ان المانيا لي .. المانيا الحبيبة .. مثل جنة الفردوس للراهب المنقطع في صومعته .. تصور أن لي فيها أبا وثلاثة أخوة وبنت عم .. و ... » كتب في رسالته « لا أدري ان كنا سنجتمع ثانية .. ولكن .. » وتوقف القلم .. تناثرت كلمات الالماني « أنا هنا .. حسنا .. ولكني لا أعرف أين هم من المانيا .. ولا هم يعرفون أين أنا .. » أدار رأسه عنه باشمئزاز .. فهـر يعـرف قصته التي رددها بعدد الليالي التي دخل المقهى فيها .. بدأت موسيقى الفالس تتوغل في المقهى .. انشق في ذهنه الشارع الجانبي الاخـر الذي يقع المرقص العتيق فيه .. وتخيل الاجسام اللدنة تتمايل وتتعانق وتتقافز .. والارجل تتسارع .. حينما دخل المرقص أول مرة اندهش .. وتساءل متعجبا كيف يرقصون هكذا .. كلهم في حركة واحدة ومع الايقاع .. بيد أن دهشته راحت وهو يرقص .. بل تقطعت كـــل الخيوط التي تخيلها أول مرة تنطلق من العازفين لتشد الراقصين .. كتب « لو كنا نستطيع أن نجتمع مرة واحدة في السنة .. الفكـرة رائعة .. ولكن تنفيذها .. » سمع الرجل الذي يتنفس سعالا يقـول « أما أنا فقد رحت وراحت ايطاليا يوم أطبقت علي أذرع معسكـر الاعتقال فيها .. في ايطاليا نفسها .. » قال في نفسه « هذا الايطالي المصدور .. كل عظمة في جسمه تئن وهي تتشوق الى ايطاليا .. » كتب « انت تعرفين أن هذه الرسائل تشوه عواطفنا .. ومع هـــذا فنحن نترقبها بلهفة .. » .

تكسر ناقوسه اللامرئي للمرة الثانية وابتلع الهواء خيوطه تاركـا سيجارته جثة ممددة من رماد . قال الالماني لرفيقه « لا أدري لمـــاذا يولع هذا الشرقي سجائره ما دام يتركها للهواء يمتصها .. » لـــم يكترث ...

اختلطت ضربات جافة مع الانغام الراقصة .. لم يرفع رأســـه رغم اقترابها .. ترددت أصوات صارخة في رأسه .. ثم سمـــع « أنت !! » ارتفعت عيناه .. كانت امرأة عجوز تصرخ بصوت كفحيح مبحوح ونصف الكلمات تظل في بطنها .. لم يفهمها أول الامر .. صعد عينيه بها .. كانت وجها مخددا جافا واطرافا هزيلة معروقة .. يدها

اليمنى تمسك بيد فتاة صغيرة .. تلبس ملابس ذات الوان عديدة متنافرة وتنظر حولها بنظرات بلهاء .. قالت له : « هكذا انتم.. تكتبون وتكتبون ولا تريدون أن تكفوا .. لقد ملت حبيبتك رسائلك الكاذبة.. أنا أقول لك ملتها .. فابحث لها عن شيء اخر يثير لهفتها .. » تفحص وجهها مرة ثانية بقلق .. وبحركة حذرة مدت يدها بعلبة مفتوحة من الصفيح وقالت « هيا ضع شيئا . ضع حتى أصلي لاجلها .. » اخرج قطعة نقد صغيرة ووضعها في علبتها فرنت مع آخريات .. خيل له أنه يعطيها لعجوز في بلده تشتري بها رغيف خبز .. ولربما لديها طفلة كهذه .. أو أطفال بدون أب .. وجمدت مقلتا عينيه وهو يتخيل بها أمه .. لكن أمه في عمان وهذه .. تحرك سؤال في صدره « ماذا يمنع من أن تكون أمي .. والصغيرة ابنة أخي ؟! » وتفحص الوجه بشرته البيضاء الجافة وعينيه الزرقاوين .. وتنهد .. قالت لرفيقيه « وانتما .. ضعا .. قدما ما عندكما ليرزقكما الله راحة الاخرة .. أعطيا مساكين الله لينظر لكما يسوع المسيح .. » طفق الالماني يحرك يده على الطاولة ويضحك .. قالت له « تضحك أيها الاعرج المبقور الرأس .. كان عليك أن تموت بدل أن تجلس هنا ونصفك في مكان اخر .. » استرسل في قهقهته .. والتفتت الى الايطالي « وأنت أيها الدودة المتعفنة ألا تريد أن تضع شيئا .. امنحنا ليمسح يسوع روحك بكفه بدل قذفنا بسعالك القذر .. » قال لها الالماني « يا لك من كلبة سليطة .. كان عليك أن تبحثي عن مهنة أخرى وأنت تملكين مثل هذا اللسان .. » « وأنت .. ما كان لك أن تجلس هنا .. بل كان عليك أن تبحث عن ساق وعين أخرى .. » « يا للعجوز المتوحشة .. » « لاكن متوحشة ما دام كل ما حولي متوحشا .. أما أنت فعليك أن تبحث عن مكان اخر ما دمت لا تستطيع دفع شيء لعاجزة مثلي .. » قال الايطالي وهو يضع قطعة نقود وسعاله يسبقه اليها « يا أمي .. اذهبي أنت واستلقي على فراشك ودعي غيرك يشتغل .. » قالت بنبرة قاسية « من .. ؟ ادع من ؟ ليس عندي غير ابني وقد أخذوه الى بلاد بعيدة ليحارب فيها .. ماذا يسمونها .. ؟ فيتنام .. حسنا أخذوه من سنة الى فيتنام ولم أعرف عنه شيئا .. وقبل مدة فرت زوجته مع رجل اخر وتركت هذه الطفلة .. تركتها معي .. فماذا أفعل ؟ » هزا رأسيهما في حين أنشأ هو يحدق فيها من جديد .. حملق في الاعين حوله .. لا دمعة .. بل لم تطرف .. خيل له كأن كل شيء تحجر .. قال الالماني « اذن فأنت أيضا بانتظار راتبك » اخرج قطعة نقود وقذف بها الى العلبة « لربما أمي الان تستجدي مثلك وعيناها ترقباني .. » « أين هي .. ؟ » « لا أدري .. في مكان ما من ألمانيا .. » « وحيدة .. ؟ » « لا .. معها أهلي .. تركتها في الحرب الاخيرة .. ولا أدري ماذا حل بعد .. » حك شعر رأسه ثم قال « وهذا المصدور اللعين .. أخذوه من بيته ليحارب ثم اعتقلوه في بلده .. ولم يتركوه حتى استلبوه اخر ما اختزنه في جسمه ثم جاء الى هنا بعد ان جلب معه جراثيم صدره .. » أجاب الايطالي بكلمات تقطعها نوبات سعاله الحادة الملحفة .. « اللعنة عليها .. معسكرات الاعتقال تلك .. » فبصقت بنفور محاولة الابتعاد .. بيد أن الايطالي أخذ يسعل بشدة واتصل سعاله حتى انقذف الدم من فمه وأنفه .. ووقع على الارض يخور ..

قفز الفلسطيني من مكانه وركض يستدعي سيارة اسعاف ... وانحنى الالماني عليه تاركا عكازيه يسقطان الى الارض .. جس نبضه والفزع يلون وجهه ويوسع عينيه .. وسرعان ما نقلوه الى المستشفى.

واستطاع الاطباء وقف النزيف .. لوى رقبته ينظر حوله وحركة أنفاسه اللاهثة تهز كل جسمه .. رأى وجهي صديقيه .. الالماني .. الفلسطيني .. تحركت شفتاه لينادياهما لكنه لم يستطع .. لم يعرف اسميهما .. فقد نسوا كل الايام التي التقوا فيها أن يتنادوا الاسماء .. بل لم يتعارف أحدهم مع الاخرين حسب الطريقة .. هكذا .. كل ينظر الى الاخر .. كلمة من هنا وكلمة من هناك .. راح الالماني يمسح على جبهته بحنان والفلسطيني ينظر الى عينيه .. مال وجه المريض الى الناحية الاخرى .. وما لبث أن عاود الطواف بالوجهين حوله .. كانت عيناه تنطقان بما يعتمل في صدره .. كل ما له في الحياة وجهان .. وجهان قريبان اليه غريبان عنه .. تمتم بالايطالية بكلمات غير مفهومة .. نظر الالماني الى وجه الفلسطيني ثم الى وجه المريض .. آمرا كفيهما على جسمه يطمئنانه وخرجا .. والتقيا بالمرأة العجوز .. سألت « ها .. كيف حاله ؟ » قال الالماني « يدنو من الموت .. » نظرت اليه والى رجله المقطوعة وعكازيه المثبتين تحت ابطيه .. الى وجهه وعينه الفارغة .. الى الشرخ في أعلى محجره .. وهزت رأسها فيما كانت تدلف الى داخل المستشفى .

في اليوم التالي .. كان الاثنان جالسين .. الفلسطيني يحاول تكملة رسالته الى اخته وفي ذهنه تدور بعض الكلمات التي يود تسجيلها في رسالة وطنه الاسبوعية .. موسيقى الفالس تعلو حتى تطغى على كل الانفاس .. تذكر المرات التي اجتمع فيها الثلاثة هنا.. الايطالي .. زفر والملامح الشاحبة المعروقة ترتسم أمامه .. مرة سأل الايطالي رفيقه الالماني : « ألم تتنبه لجارنا هذا .. ؟ انه ساكت دائما .. » فرد عليه ذاك « طريقة جديدة للهرب من الدنيا .. » « سوف أسمعه قصتي ليحكي لنا شيئا عن حياته .. » « لا فائدة .. فهو لا يعرف غير زرع الكلمات في رأسه ليكون حصادها على وريقاته تلك..» « يبدو انه غريب .. » « شرقي ؟؟ » « يبدو » تذكر ما انبثق في خياله لحظتها .. تمنى لو يأتي بمرآة يثبتها أمامهما لينظرا نفسيهما.. استشعر شيئا من الاسى .. فات كل شيء وانتهى .. وليس له الان غير هذه النظرات الفارغة يتبادلها مع الالماني الحزين .. قال في نفسه « حزنه يكثر كلما مرت الساعات .. فهو منذ الساعة التي فقده بها انطفأت عيناه .. لا بد أنه فقد به الاذن الوحيدة التي تسمع صوته المشروخ .. » تذكر رسالته .. كتب « المصائب كثيرة في هذه الدنيا يا أختي .. بالامس .. » راح يكتب قصة رفيقيه ..

انتبه وأنغام الفالس تلعب في جو المكان .. أرجل تتحرك بسرعة مختلطة بحركة بطيئة لعصا عجوز مهزوزة .. كانت تسير ممسكة بذراع الطفلة بين شرطيين مشدودي الملامح .. تصفع الناس والاشياء بنظرات حادة قاسية .. وحينما قربت منهما حيتهما بصمت وتقطيبة تقمة تتعقد في جبهتها .. تبادلا نظرات طويلة .. ثم جذب كل منهما نفسه من مكانه ليسير وحيدا في شارع مقفر ..

**عبد الرزاق المطلبي**


## منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

**مكتبة مدبولي**

٦ ميدان طلعت حرب

( سليمان باشا سابقا )